و (لقوم يؤمنون) يتنازعه بصائر وهدى ورحمة لأنه إنما ينتفع به المؤمنون فالمعنى هذا بصائر لكم وللمؤمنين وهدى ورحمة لقوم يؤمنون خاصة إذ لم يهتدوا وهو تعريض بان غير المؤمنين ليسوا أهلا للانتفاع به وانهم لهوا عن هديه بطلب خوارق العادات .

بان العطف يؤذن ([204] ترحمون لعلكم وأنصتوا له فاستمعوا القرآن قرئ وإذا) A E الخطاب بالأمر في قوله (فاستمعوا) و (أنصتوا) وفي قوله (لعلكم) تابع للخطاب في قوله (هذا بصائر من ربكم) الخ فقوله (وإذا قرئ القرآن) من جملة ما أمر الرسول E بان يقوله لهم وذلك إعادة تذكير للمشركين تصريحا أو تعريضا بان لا يعرضوا عن استماع القرآن وبأن يتأملوه ليعلموا أنه آية عظيمة وأنه بصائر وهدى ورحمة لمن يؤمن به ولا يعاند وقد علم من أحوال المشركين انهم كانوا يتناهون عن الإنصات إلى القرآن (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) .

وذكر اسم القرآن إظهار في مقام الإضمار لأن القرآن تقدم ذكره بواسطة اسم الإشارة فنكتة هذا الإظهار : التنويه بهذا الأمر وجعل جملته مستقلة بالدلالة غير متوقفة على غيرها وهذا من وجوه الاهتمام بالكلام ومن دواعي الإظهار في مقام الإضمار استقريته من كلام البلغاء .

والاستماع الإصغاء وصيغة الافتعال دالة على المبالغة في الفعل والإنصات الاستماع مع ترك الكلام فهذا مؤكد لا تسمعوا . مع زيادة معنى . وذلك مقابل قولهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) ويجوز أن يكون الاستماع مستعملا في معناه المجازي وهو الامتثال للعمل بما فيه كما تقدم آنفا في قوله (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا) ويكون الإنصات جامعا لمعنى الإصغاء وترك اللغو .

وهذا الخطاب شامل للكفار على وجه التبليغ وللمسلمين على وجه الإرشاد لأنهم أرجى للانتفاع بهديه لأن قبله قوله (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

ولا شبهة في أن هذه الآية نزلت في جملة الآيات التي قبلها وعلى مناسبتها سواء أريد بضمير الخطاب بها المشركون والمسلمون معا أم أريد المسلمون تصريحا والمشركون تعريضا أم أريد المشركون للاهتداء والمسلمون بالأحرى لزيادته .

فالاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول A المقضي إلى الإيمان به ولما جاء به من إصلاح النفوس فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين .

فهذه الآية مجملة في معنى الاستماع والإنصات وفي مقتضى الأمر من قوله (فاستمعوا له وأنصتوا) يبين بعض إجمالها سياق الكلام والحمل على ما يفسر سببها من قوله تعالى (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغو فيه) ويحال بيان مجملها فيما زاد على ذلك على أدلة أخرى . وقد اتفق علماء الأمة على أن ظاهر الآية بمجرده في صور كثيرة مؤول فلا يقول أحد منهم بأنه يجب على كل مسلم إذا سمع أحدا يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع وينصت إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعته فلو وجب عليه الاستماع لأمر بترك عمله ولكنهم اختلفوا في محمل تأويلها : فمنهم من خصها بسبب رأوا انه سبب نزولها فرووا عن أبي هريرة أنها نزلت في قراءة الإمام في الجهر وروى بعضهم أن رجلا من الأنصار صلى وراء النبي A صلاة جهرية فكان يقرأ في الصلاة والنبي A يقرأ فنزلت هذه الآية في أمر الناس بالاستماع لقراءة الإمام . وهؤلاء قصروا أمر الاستماع على قراءة خاصة دل عليها سبب النزول عندهم على نحو يقرب من تخصيص العام بخصوص سببه عند من يخصص به وهذا تأويل ضعيف لأن نزول الآية على هذا السبب لم يصح ولا هو مما يساعد عليه نظم الآي التي معها وما قالوه في ذلك إنما هو تفسير وتأويل وليس فيه شيء مأثور عن النبي A